الواقع المعاش في رحماك يا دمشق !

بقلم خليل احمد خليل

تحتوي « رحماك يا دمشق » للدكتور سهيل ادريس على عدة قصص ، تمتاز بكونها لوحات صغيرة تعتمد الحادثة الموضوعية كمنطلق ، وقلما تخرج هذه القصص عن نطاق الحادثة الاجتماعية . لهذه القصص قيمة مبدأية لكونها مبادرة جيدة في ادبنا العربي طالما اهملها كتابنا القصاصون . القصة هي مشهد تتحول فيه — الخشبة والاشباح والممثلون والمشاهدون — الى وعي وتطلع ، الى رمز . ما يهم اذن في قصة سهيل ادريس الصغيرة هو التوحد ضمن طبقات الواقع وارتجاج سيره الحالي .

لقصته ميزة اخرى : هو خلوها من الضبابية والكثافة الشعرية والاطارية المصطنعة غالبا لدى روادها . انها بسهلة عنده ، بلا اسلوبية مبتذلة ، تأتي بهدوء كترتيلة دموية ، تفاجىء الانسان العربي وتعرفه بيأسه المعاش وتريه اي فجر يختمر في دمائه .

فالادب يعيد هنا فرصة تتيح لنا ان نفاجأ بأنفسنا .

« رحماك يا دمشق » لها انسكاب خاص . تتدافع من واقع الازمة العربية ، وهي وان تجاوزت المجتمع العربي في بيروت الى دمشق فانما تكون قد غيرت وجه بعض الحدود الاجتماعية لا روحها ، وما يهم اديبنا هو هذا الجوهر الذي لا يخترع بل يتقد ويشع ويحترق — وخلف المقصلة اليومية يحسن ان ترتفع يد جديدة ، لان القلق هو الارض الحقيقية التي يبذر فيها انساننا دماءه ورياحه ومبادئه ليلتقي غدا بروحه الغائبة ، وليتمكن من الرسوخ في حضورية الرؤية الوجدانية والقومية .

(١)

القلق يبدأ حينما نرتبط بالحياة . هذه الحياة هي اختيار لشيء ما . وكل اختيار يفترض سوابق ثقافية وينفذ طبقا لحالة المجتمع التكنيكية والحضارية ، فالحرية عمل موضوعي مرتبط بنوعية الفرد وبوسائله واهدافه .

ورجل الحرية في « القلق » لا يبحث عنها كفيلسوف او كشاعر ، بل كواقعي مناضل ، كثوري لم يفقد معنى الواقع . « اين تراها تكون هذه الحرية ؟ أين هي في يومه : في بيته ، في عمله ، في معنى حياته » وقد اختصر الدكتور ادريس كل مجال البحث عن الحرية في فقرة . اذ انه ربطها أولا بالزمن — بحركة الحياة اليومية — الزمن العدو الاول للانسان ، وعدو الحرية والاستمرار والامكان الوحيد لتحقيقها ، وحصر الزمن بالواقع فربط الحرية بالبيت — وكم له من وظائف نفسية وكيانية واجتماعية — وبالعمل ، الرابط الحقيقي بين الانسان والاشياء ومن ثم بالحياة كدائرة تحتوي كل هذه الاشعة . انساننا ، مركز هذه الدائرة ، في تقلب ويكاد ينفذ بين تموج الاشعة . الا ان المرأة — الاخر المضحى ، والانا التي قدمت للانت ، حيثما تبادل الحياة هو بداية العلاقة الودية تشده الى واقعه ومستقبله . الزوجة هنا ضمير ثان — اخر الضوء وبدايته . لذا فهو « يشعر بان الغيوم تنقشع من سمائه اذ يحدثها عن المستقبل ، هذا الذي يحبه ويخشاه ، يحبه لانه يخشاه » . المستقبل حيث الولادة والتجدد ممكنان ، حيث التحول والتغير طريقة في الحياة ، المستقبل يربط الانسان بالعالم ويجعله يأمل ويحب . والامل هنا غير التفاؤل . التفاؤل مرحلي ومحدود زمنيا ، والامل انفتاح وتوهج وعشق لا ينتهي . المستقبل خطر كالابدية ، مع هذا نتخيله كمبحر يربطنا بالالوهة واللازمن — واللامسافة .

بطلنا عقلاني قبل كل شيء لذا فهو واقعي . انه مع الاشياء ، لها ولغيرها . انه يخدم الرمز — والرمز غير الشارة والشعار . انه يخدم الجوهر الموحد ، المحتفظ بالكل كواحد ضمن الكثرة ، ينطلق ، رجلنا من حياته الضرورية — وفي الضرورة تنعدم الحرية . انها تبدأ خارج اليومي والضروري . فما نحن مجبرون على فعله لا نستطيع ان نسميه عملا حرا .

رغم انه يتحدث عن الاعمق فالاشياء البسيطة تستطيع ان تكون مصدر يأسه وتعاسته و « ان تقتل في قلبه الحنين البشري » . والحنين هنا انفتاح على مستقبل . ثمة وعد . وان كان هذا الحنين بدائيا اصلا ، فنحن ما نزال بين العقل والاسطورة ، بين العلم والسحر ، بين الشيء والكلمة ، بين الملك والكائن ، بين الرغبة والغياب ، والمرأة هنا ليس لها دور حقيقي ومادي . دورها ايحائي وروحي . انها كالشعاع توضح منافذ الطاقة في الانسان وليبتعد اليأس . فهل هناك دور اكبر من هذا تستطيع المرأة او الانسان عامة ان يلعبه : وكل تجاربنا العلمية والفنية ليست سوى محاولة في اعادة الثقة الى الانسان، اعادة الحياة اليه ودفعه بحماسة الى النضال والارتفاع؟ المرأة نار تفعل وماء يجدد وهواء يسحرنا بشفافية الحيرة والازمة ، يجعلنا نرى انفسنا .

وخارج هذه العلاقة — رجل امرأة — ثمة علاقة رجل — اخرون . في الخارج يبدأ القرف حيث يحس بطلنا انه بحاجة الى اصدقاء يثق بهم ، ويثقون به ، رفاق قريبين اليه يلقى عندهم تواصلا وجدانيا يسر له ولهم ان يرسموا خطة ويشرفوا هدفا ويحددوا غاية . » انه يبحث عن عالم حي دافىء مليء . عالم الانسان والتبادل والتجاوب والخلق ، والانفلاش خارج البيت والتشتت داخله وتأزم قضايانا العربية بدفعه الى الاحساس « بأن الذي يموت فيه انما هو الانسان العربي » والازمة القومية هي ازمة وجدانية ايضا . ذاتية واجتماعية . فالذات التي تربطنا بالمجتمع ، هي نفسها التي تفصلنا عنه ، اذ لنا دوران ، ووجهان ، يقول الانسان القلق

« لست اعرف من انا، ليست هذه هي الحياة التي اريدها، التي انشدها . انهم هم الذين يعيشونها لي . » القلق يرى نفسه من الخارج ولكنه لا يرى خارج نفسه القلق ضائع ، مضغوط ومكبوت . عدوه امامه : الاستعمار . الاجانب . الاخرون المجهولون . الاخرون المعروفون . وما يؤلمه ليس وجود العدو فحسب بل كونه قاصرا عن مد يد العون الى اخيه المناضل . اذن عقلية المشاركة التي يتميز بها مجتمعنا العربي هي التي توجه رجلنا وليس تشخصنه هو . انه يرى في الطفل ، ابنه ، مستقبلا له ، وليس في الطفل الذي يكمن في الرجل نفسه . « سنعرف لماذا نناضل ونعيش قلقنا يا بارعة . ان العجز اليوم يشل ايدينا . ان جيلنا هو جيل انتقال . انه الجيل الضحية». والحق اننا نناضل من أجل بقائنا واستمرارنا الا ان كل جيل هو جيل انتقال ، وكل انتقال يفترض السقوط والضحايا . اذن لسنا اول القافلة ولا نهايتها . هنا يتمثل قلق مسلكي ـ قلق الباحث عن لقمة وحب وراحة ، وهذا هو باعث قلقنا الحقيقي .

(٢)

في « الدمع العذب » تحول سحري . هنا تلتقي الكلمة مع الشيء ، تبتعد عنه وتخلقه . كانت زوجته تود ان تستمع الى الخبر وهي قربه . الا انه ذهب الى النادي ليشارك الاخوان في الاستماع اليه . قيمة الفكرة هي ان تجعل الانسان يؤمن ويثق ويتحمس ـ هنا تبادل القوى وتجمعها يصيران ممكنين . العالم بكل معطياته يحتاج الى روح ، « يا احمد ! انك لا تتصور اية خطوة عظيمة هذه التي خطوناها . حسبها ان ترد لنا ايماننا بانفسنا » ويتابع : « ان المؤمنين ليسوا فلاسفة ، انهم ادباء ، شعراء . انهم هم الذين يخلقون من جديد . ينكرون الواقع ابدا ليصنعوا واقعا اجمل واروع ، وما يفتأون يعملون حتى يؤمن الناس بهذا الواقع الخيالي وانذاك يبدأ هذا الواقع بالتحقق » . الايمان يفترض بطبعه ثبات العلاقات وقبول بعض المسلمات ـ الحرية مثلا احداها ـ الا ان كل ايمان يحتاج الى اضاءة وتوضيح ، يحتاج الى ممارسة . لا نحتاج الى مبتكرين وعلماء فحسب بل الى من يجعل الناس يتقبلون افكارنا الجديدة . فالشاعر طبيب من نوع مختلف ، وما يعوزه هو انفتاح الاخرين على عالمه ـ الذي هو عالمهم ـ وكذلك القصاص والعالم . اذن على الكلمة ان تولد اولا . وهذا لا يعني ان ولادة اي كلمة سيتيح لشعبنا ان ينهض . نحتاج الى مباديء تلبي حقا حاجاتنا وتنقل تجاربنا الراهنة . كذلك دور الادب المعاصر . خبر قيام الوحدة يعرفه كل عربي ، ويبادر الدكتور ادريس الى تصوير لوحة شعورية ساعة تلقي النبأ . كل فهم لحياتنا سيتغير اثر النبأ : الرؤية والروح والتطلع ، حتى الدم سيسير في اتجاه شعبي جديد . الرمز تحول ابدي وكل مجتمع لا يؤمن برموزه ويحولها الى ايقونات يكون قد خطا نحو هاويته .

(٣)

اما « رحماك يا دمشق » فهي قصة سقوط الرمز . لقد اضطربنا امام انفسنا اولا قبل ان نضطرب امام العدو . الزمن يفصلنا اكثر فاكثر عن روحنا ورمزنا . وقضية السقوط ليست مادية فحسب ، انها حضارية وقومية . والسقوط عودة الى القلق بعد ذرف دمعنا العذب ، عودة الى الانفتاح ، على الوجه الاخر من قضيتنا حيث للرمز رأسان : الامل واليأس . وانساننا ينبض بين نارين . « هنا دمشق ، محطة الاذاعة السورية » . . . لا تمثل نبأ فحسب ، بل العودة الى التمزق . لذا « ينبغي ان نواجه قضايانا على غير هذا الاساس الانفعالي العاطفي، يجب ان نتقبل افراحنا بغير الدمع العذب ، ومصائبنا بغير الدمع المر . » ما يهم في التاريخ الواقعي لكل شعب، هو تاريخه الروحي . همة الشعب وصموده اهم بكثير من تحليل الاحداث رغم ضرورته . والنبأ الذي اقلق البعض افرح البعض الاخر . والسقوط التقدمي هو قيام رجعي ، الا ان الخط التقدمي لا بد ان ينتصر . ان الشعب قابل للتضليل والرجل اعترف باخطائه وليس من حقنا ان ندين الرمز ـ الوحدة ـ باسم الاحداث . فهل نفصل الرمز عن مضمونه وواقعه ؟ لا . لكن علينا ان نصحح الاحداث للاحتفاظ بهذه القيمة التأسيسية . الخسارة هي مبدأية اذن . اما ان نتطور في خط سليم ـ اشتراكي عربي ـ واما نندحر فتأتي الرجعية لتحل السرطان محل العافية وانضباط القوى الاجتماعية .

واثر النكسة في المناضلين لا يقل خطورة عن حادثة السقوط . انها ليست مجرد حادثة . انها حادثة تهمنا نحن وهي مرتبطة بمصيرنا الكياني والقومي . « اتراني سأموت انا أم يموت الطفل » ؟ والذين رفعوا الرمز لم يعمدوا الى تصحيح الخطأ دون القذف به ـ يرى الدكتور ادريس ـ . انهم « ـ يريدون بأي ثمن ان يشتركوا في الحكم الذي حرموا منه فترة من الزمن . « اني لم اقر ضرب هذا الحزب » . فالحزب الاشتراكي قد ضرب . هذه حادثة . الحزب يتبنى الوحدة ـ كمؤسسة عربية جديدة ، كقيمة قومية ، كرمز شعبي ـ فلا يمكن تبرير انتقام لحادثة سياسية بضرب قيمة شاملة . والا فمنطقنا فاسد ! والمؤلم هو ان توصف لعبة الانفصال بأنها « ثورة خبز » . فان كانت كذلك فلصالح من ؟ وهذا يتوقف على عقيدتنا والطبقة الشعبية التي تناضل ضمنها من اجل المجتمع الجديد ، فالقضية قضية سقوط نضالي ، سقوط قيمة ، سقوط خطة حياتية قد تفتح لشعبنا دروبا جديدة .

(٤)

« الشهداء » ذكرى عالم قديم ، كدنا ننساه . ٦ ايار رمز للدم الذي بذل دفاعا عن الحرية والاستقلال والبناء الوطني . لهذه المسرحية قيمة تذكارية فقط . فهي من الناحية الادبية لا تضيف شيئا كبيرا الى تراثنا العربي . يعمل الفكر في هذه اللوحة اكثر مما تعمل التجربة . فالمعاناة تهيمن على جو اللوحات السابقة . وهنا يحتل السرد التاريخي المكان الاول ، اما قيمة اللوحة من حيث العمل المسرحي فهي متوسطة . وهذا عمل نقاشي وكونه عن الشهداء لا يعني ان له قيمة فنية . فلنر اذن ماذا تحمل لنا هذه اللوحة ـ ذات الفصول الثلاثة ـ من افكار . ان المناضل يحرم على رفيقه ان يستسلم لليأس ، اذ ان اليأس هو العدو الاول ، اما السفاح فيأتي بعده . ونحن « اننا لن نسيغ الخبز قبل ان نستقل » . « ان الجوع هو الذي يفجر احساسنا اليوم بأن الظلم قد بلغ ذروته ». لقد سبقنا كثير من اخواننا في دروب النضال ، والمناضل الحقيقي سيتابع عملية النضال والتضحية ، واي تراجع بعد خيانة او هزء بمن ضحوا . ونلاحظ ان قضيتنا القومية لا تنفصل عن قضايانا الخاصة بل تتسع لها . وتتساءل سلمى عن كيفية ولادة البطولة في صدور

الرجال . ويحلو لنجيب ـ الحارس ـ ان يجيب : « ان البطولة يا سيدتي شعلة يلقيها الاله في صدور من يرفعون الانسانية الى ذروة انتصاراتها الرائعة ... » وذروة كل بطولة ان يبرق فينا الغد والمستقبل ، ان نعود فننفتح على روحية جديدة لشعبنا عبر تاريخه ، ويلامس اطفالنا وردة الثورة يقطر منها الرصاص والدم والاغاني ، وفوقها راية شهيدة تحمل الحياة الصلدة والرجولة .

(٥)

« ذلك العصفور القطني الاصفر ، سيلمسه زياد أخيرا بأصابعه ، هذا المساء ، وسيلمس ظهره الناعم براحة يده الصغيرة وسيضمه الى صدره » زياد الذي رأيناه يمتد كحلم ضيق عبر نكسة السقوط التأسيسي هو ابن هذا الحلم . فما العصفور القطني الاصفر سوى الفائض الذي يسمح لشعبنا ان يتمتع بشيء من حريته المادية والروحية . فالحمال الذي تنافسه السيارة لا يكاد يكسب خبز يومه . فكيف يعلم ابنه وكيف يلاعبه وما هي العابه وكيف يرتاح هو وزوجته الخ .. العملية تستوجب الكسب الكافي وامكان التوفير . والمعروف ان التوفير القومي وتراكم الرساميل الوطنية هو الامل الوحيد الذي سمح لشعبنا بانجاز مشاريعه. الحمال يأمل: «لاشك في ان الاحوال ستتحسن في المستقبل ويتضاعف دخلي . ومن يدري ؟ فقد اهجر العتالة الى مهنة اخرى اكثر ربحا ». « لماذا لا تقوم عندنا المصانع الكبيرة ؟ » « صدقني يا زياد انني اكبر من هذا العمل » . انساننا لا يشك بطاقته ولا افقدته الظلمات قوى عينيه . انساننا يتجدد كالمستقبل يعيش فيه وله : جسدا وطاقة وفكرا . انه يحلم ومن الحلم تولد خطة عمل ويشمر عن ساعد ومعول يحفر وحجر يرتفع . تمت الركيزة الاولى ، وعلى النبع ان يفيض ، « انتظرني يا زياد ، انتظرني يا زياد ، انتظرني».

الا انه يفاجأ بأخ يضرب اخاه ، بائع العلكة . « انت لماذا تضربه » . « تقول ان اباكما سيضربكما لهذا ؟ وقد يطرده فينام على العتبة ؟ ولكن اي اب هذا ؟ انه مريض؟» .. « انك تشبه زياد » يخاطب البائع الطفل . ولكني انا لا إضربه . انا لست مريضا ولله الحمد . » فالمرض هنا روحي قبل كل شيء . ذاك انه يدفع بابنه الى الشارع فيقتله وهذا اخر يهدم نفسه في الشارع ليرتفع بابنه . العافية تدعى العمل والتضحية . والغضب يدعى السرطان . يحرم العتال ابنه من الهدية الصغيرة ، من هذه الحرية الفائضة ، لينقذ ، لليلة فقط ، طفلا بدم مستقبلي. واذا كانت هذه العملية غير جذرية فهي احتجاج على الظلم والبؤس ، شهادة ضد اليأس وعلامة تفتح داخلي واجتماعي .

(٦)

في « التفاهة » تبرز مشكلة الانسان الملتزم. الالتزام ارتباط وكل عهد يفترض الاخلاص ـ أي ثبات العلاقات ـ وما الوفاء الا الايمان باستمرار هذه العلاقات الثابتة . في العلم تبنى الانظمة انطلاقا من قوانين ثابتة او يعتقد انها كذلك . في الحياة البشرية لا نكاد نتأكد من ثبات شعورنا ووعينا ومع ذلك نحاول ان نتجه . الا اننا عين ؟ والعلم آلة تصوير . وهكذا لا نملك القدرة على اثبات الصورة في الحدقة . فهل الالتزام يعني ان نقاد ونحرك من الخارج او ان نشارك في عملية ما متبادلين المشاعر والعواطف والاماني ؟ اننا نرتبط بالاخر عن طريقة الانجذاب الاجتماعي العاطفي ، ولا نفهم ذلك بطريقة عقلية . الحياة تختلف عن التفكير والتسلسل المنقي اذ انها تحتويها وتتسع لاشياء اخرى غريبة . تحمل ما لا يلمس ومع هذا يأتي ويفعل . حتى ان الشيء الواحد يلعب عدة ادوار في وقت واحد ، في لحظة تقفز فوق المكان والحركة والتركيب والوظيفة وبسحر نلمس الكل وبسحر نتسع ونتفرج .

« ـ لماذا لم تنتظريني ؟ »

« ـ لماذا ؟ ألم نتعاهد ؟ »

« ـ ما جدوى هذا الحديث الان »

« ـ قد تكون الحياة كلها بلا جدوى . ولكن هذا لا يمنع اننا نعيشها » .

« ـ غير ان من الافضل احيانا ان نتناسى اننا نعيشها »

« ألم نتعاهد ؟ » .

ولا يكفي ان نتعاهد ، اذ ان علينا ان نأخذ بعين الاعتبار الظروف الموضوعية التي تتدخل بصفة مباشرة او غير مباشرة لتعدل وتدفعنا في اتجاه مختلف ، حتى الاخلاص صعب غير انه ممكن .

قالت :

« ـ هذه المثالية ! الا تعتقد انها ... زائفة .

قالت : « ـ لكن طبيعة هذه العلاقة ... ستختلف من غير شك .

قالت : « ـ ما كان لي ان اتنبأ بذلك ، بل كان عليك انت ان تقيم الدليل .

« ـ ان العهد كلمة مجردة . ولا بد من تقديم الادلة المحسوسة لمنحه قيمته » .

يسقط الطفل . والدم يأتي كصوت مفقود . الجرح في الوعي .

« ـ انني انا المذنبة ... لقد غفلت عنهما .

ـ بل انا المذنب ... لقد شغلتك عن حاضرك ... بماضي انا . »

***

يسقط الحوار ، تسقط الكلمات . دم الذكرى ينبض، يرتفع في اشواك الافق التائهة . اغنية تشع وقمر الصدر يكمل دورته . الانسان تمزقه الاشعة وهضبة رمل ترتفع والحضور كلمة تأتي ، تأتي تصير نهرا وشجرة والانسان عالق بما لا يدري يصرخ ويتآكل ، يحترق ويرتفع ، يكتب اسمه فوق الدمع ويسمي المجاعة باسمائه .

خليل احمد خليل

منشورات « دار الاداب »

تطلب في القاهرة

مـــر

مكتبة مدبولي

٦ ميدان طلعت حرب

(سليمان باشا سابقا)